

## الإرشاد ضد النشاز:

### القديس يوحنا الذهبي الفم حول الكوارث الطبيعية

الشماس مارك روزين

نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

في إحدى عظاته المؤثرة حول الأيام الستة للخلق، قال القديس باسيليوس الكبير أن الكون، كل الخليقة، هو صورة للنظام الإلهي والتناغم: "العالم بأكمله، بكل أجزائه، مربوط إلى الله من خلال قانون الجذب الأبدي بشركة واحدة وانسجام." [١] الأرض مرتبة حسب نظام الجمال. إنها من صنع الفنان العظيم (القديس غريغوريوس اللاهوتي) والنحات (القديس يوحنا الذهبي الفم). [٢] بالنسبة للقديس باسيليوس وغيره من الكتّاب الأبائين، الكون هو أيقونة، مظهر من مظاهر الإبداع الإلهي الذي يعيد إلى الله ما خلق من أجله: تمجيد خالقه. ومع ذلك، فإن هذه النظرة الأبائية للخلق كرمز للجمال والتناغم تهتز عندما تهتز الأرض، عندما ترتفع الفيضانات، عندما تشتعل النيران، وتتدمر المدن والمنازل والحقول. أين يكون ترتيب وتناغم الكون في هذه اللحظات؟ هل كان هناك معنى لهذه المآسي؟ أين يكون الله؟ لا يمكن أن تكون أسئلة المسيحيين الأوائل في مواجهة الكوارث الطبيعية مختلفة تماماً عن أسئلتنا اليوم. كيف أرشد آباء الكنيسة رعاياهم في هذه الظروف الصعبة؟

كانت مدينة القسطنطينية من الأماكن التي تعرضت لكوارث طبيعية بشكل متكرر، وخاصة الزلازل. تقع القسطنطينية (اسطنبول اليوم) على صدع شمال الأناضول، وقد تعرضت لعدد لا يحصى من الزلازل على مدار تاريخها. ألقى القديس يوحنا الذهبي الفم، الواعظ الشهير ورئيس أساقفة القسطنطينية في الفترة من ٣٩٧ إلى ٤٠٤، خطبة مرتجلة بعد أيام قليلة من وقوع زلزال ضرب المدينة في عام ٤٠٠. في هذه العظة، اعتبر الذهبي الفم أن الخطيئة الجماعية هي سبب الزلزال وتداعياته وأن علاجها هو توبة جماعية، توبة شهداها في رعيته.

#### القديس يوحنا الذهبي الفم وزلزال سنة ٤٠٠ في القسطنطينية

في عظته، ذكر الذهبي الفم أنه خلال الزلزال سار أهل رعيته في موكب وهم ينشدون المزامير والترانيم وصلوات التوبة في شوارع وميادين المدينة التي يبلغ عدد سكانها مئات الآلاف. [٣] في الليل، مع استمرار ارتدادات الزلزال، استضافت الكنائس السهرانيات:

من الممكن سماع ترانيم المزامير في السوق، و[سماع] الجالسين في المنزل، أحدهم يرتل المزامير، وآخرون الترانيم. يحل الليل، الجميع [يركضون] إلى الكنيسة، المرفأ غير المتموج، الهدوء الذي تحرر من الأمواج. [٤]

على الرغم من أنه كان كثيراً يقيم السهرانيات والزيارات في شوارع القسطنطينية في مناسبات أخرى، إلا أن الذهبي الفم لم يبادر إلى هذه الاستجابة التلقائية الواضحة للزلزال ٤٠٠. ولأنه لم يتمكن من المشاركة في الصلوات والسهرانيات بسبب المرض، فقد امتدح شعبه لقيامه بها من دونه:

لأن من لا يسفك حتى دمه من أجلكم بكل سرور، الرجال المتحمسون جداً في التقوى، والمتحمسون جداً في الالتزام، والذين أظهروا مثل هذه التوبة في فترة زمنية قصيرة. أنتم لا تعرفون الليل والنهار، لكنكم جعلتم الاثنين نهاراً، لا بتجاهل الكآبة بل بإضاءة الليالي بالسهرانيات؛ لياليكم بلا نوم، هلك طغيان النوم. [٥]

في عظته، ينسب الذهبي الفم صراحةً وقف الزلزال إلى أعمال أفراد رعيته وقت وقوع الزلزال. فهو يقول: الغضب من فوق وصوتك من أسفل. الصوت الصادر من الأسفل كبح الغضب المتدفق من فوق. فُتحت السماوات ونزل حكم من فوق بالسيف المسنن. المدينة على الأرض والغضب لا مفر منه. لا نحتاج إلا إلى التوبة والدموع والرتاء وقد انحلت كل الأشياء. ظهر الله وأذنبنا غضبه " [٦]. بالنسبة للقديس يوحنا، التوبة كانت أداة قوية لإحلال السلام، ليس للنفس فحسب بل للأرض أيضاً. اللافت للنظر أن فهمه للتوبة في هذه العظة ليس بسبب الخطايا الشخصية لأفراد في رعيته، لأنهم لا يلامون على الزلزال على الإطلاق، بل الخطايا الجماعية للمجتمع الأوسع في القسطنطينية.

### الكوارث الطبيعية والخطيئة والمدينة

كما هو الحال في العظات الأخرى، يتوجه الذهبي الفم بشدة إلى الأغنياء والأقوياء، والتي شملت في القسطنطينية البلاط الإمبراطوري. يجادل القديس يوحنا بأن خطيئتهم هي التي جلبت الزلزال، بينما عكست أعمال التوبة الجماعية للمسيحيين في الطلبات والترانيم آثار هذه الخطيئة السيئة. في المقطع التالي، يمتدح الذهبي الفم أتباعه بحرية بينما يدين الذين اعتبرهم المسؤول الأكبر عن الزلزال:

لن يخطئ المرء إذا سَمَّاهم القائمين على المدينة ومنقذوها. أين الحكام؟ أين المنقذون العظماء؟ للمدينة أنتم حقاً أبراجها وسورها وأمنها. لأنهم، من ناحية، سمحوا للمدينة أن تتعفن بسبب شرهم، بينما أنتم، بفضيلتكم، جعلتم المدينة ثابتة. وإذا كان من الضروري سؤال أحد ما عن سبب اهتزاز المدينة، فحتى لو لم يقل [ذلك]، فقد سبق الاتفاق على أنه بسبب الذنوب، بسبب أعمال الجشع، بسبب الظلم، وبسبب الفوضى، من أجل أعمال الكبرياء، من أجل الملذات، بسبب الغش. مَنْ عملها؟ الغني. من جديد، إذا سئل أحدهم عن سبب ثبات المدينة، فقد سبق الاتفاق على أن ذلك بسبب ترنيم المزامير، والصلوات والسهرانيات. مَنْ عملها؟ الفقراء. [٧]

على الرغم من أعمال الأغنياء والأقوياء التي تدمر الأرض وتدمر المجتمع، يمكن للكنيسة (التي حددها هنا باسم "الفقراء") أن تصحح هذا الوضع الشرير. يقول القديس يوحنا إن الزيارات والترانيم أعادت الانسجام إلى الأرض من خلال "تطهير" و"تقديس" الأرض والهواء والبيئة المبنية في القسطنطينية. إذا كان الزلزال

يشير إلى تدنيس الأرض والهواء من خلال الخطيئة، فإن صلوات وتراويل الأجساد المسيحية الثابتة "ظهرت" تلك الأماكن:

لكنكم أكملتكم سهرانية عظيمة جداً، وقيمتكم بتطهير المدينة بأكملها بخطى أقدامكم المقدسة، بعد أن قستم السوق بمشيكم، وجعلتم الهواء مقدساً. لأن الهواء يتقدس من ترنيم المزامير، تماماً كما سمعتم اليوم الله يقول لموسى، "الموضع الذي أنت واقف فيه أرض مقدسة" (خروج ٥:٣). لقد قدّستم الأرض والسوق. لقد جعلتم مدينتنا كنيسة. [٨]

لقد رأى الذهبي الفم الزلازل بمثابة حلفاء في جهوده لخلق شعب مسيحي، "لكنسنة" العاصمة من خلال إعادة العلاقات العادلة بين الأغنياء والفقراء، من بين أمور أخرى. بسبب الخوف الذي أحدثته الزلازل، اجتمعت الناس معاً، مما قلص، مؤقتاً، الفجوة المتسعة بين الطبقات الاجتماعية التي ميزت الحياة الحضرية في ذلك العصر، والتي غالباً ما كان يدينها. لقد خلق زلزال سنة ٤٠٠ حالة لا تختلف عن حالة الجماعة الرسولية كما هو مسجل في سفر أعمال الرسل. قال الذهبي الفم في عظة بعد عام من زلزال ٤٠٠، في سياق مناقشة الكنيسة في أعمال الرسل:

إذا كنتم تتذكرون كيف كان الأمر عندما هز الله مدينتنا بزلزال، كم كان الجميع خاضعين. كان هذا هو الحال معهم. لم يكن هناك غش ولا مكر حينها. هذا أثر الخوف، هذا أثر البلاء! لم يكن هناك حديث بيني وبينكم حينها. لذلك انتظر الفرحة عند مائدتهم. كان الأمر كما لو أن لا أحد يأكل من تلقاء نفسه أو من غيره.... ولم يعتبروا أي شيء خاصاً بهم؛ انه يخص الاخوة. ومن ثم فإن الفقير لا يخجل والغني لا يتكبر. [١١]

لقد أشاد الذهبي الفم بزلزال سنة ٤٠٠ لأنه بدفعه إلى التوبة وضع حداً، ولو لفترة وجيزة، للخطايا الاجتماعية التي أثارت غضب الله في الزلزال.

يبدو أن القديس يوحنا الذهبي الفم مقتنع بأن الخطيئة الجماعية المستمرة (خاصة مع الأغنياء والأقوياء) كانت سبب الزلزال، وهو مقتنع بنفس القدر بأن التوبة الجماعية كانت استجابة ضرورية وفعالة. يجب الاعتراف بأن الأمر "توبوا!" هي إجابة غير مرضية على الإطلاق للأسئلة التي تنشأ عند وقوع الكوارث الطبيعية، وخاصة تلك التي يطرحها ضحايا المأساة. ومع ذلك، سيكون من الخطأ قراءة الذهبي الفم على أنه تبرئ ل"لاهوت عقاب إلهي تبسيطي" يوقع فيه الله بنا الكوارث بسبب خطايانا، كأولاد وبنات مشاغبين. بل إنه يقول شيئاً عميقاً عن العلاقة الحميمة بين الإنسان والمجتمع البشري وتناغم العالم الطبيعي.

بشّر القديس يوحنا، مثل أنبياء العبرانيين، بأن التنافر في العالم الطبيعي يعكس تنافراً أكثر أولية، سواء في النفس أو في المجتمع. نقرأ قول النبي عاموس: "اسْمَعُوا هَذَا أَيُّهَا الْمُتَهَمُّونَ الْمَسَاكِينَ لِكَيْ تُبَيِّدُوا بَائِسِي الْأَرْضِ. أَلَيْسَ مِنْ أَجْلِ هَذَا تَزْتَعِدُّ الْأَرْضُ، وَيَتَوَخَّوْنَ كُلُّ سَاكِنٍ فِيهَا" (عاموس ٨:٤، ٨). بالنسبة إلى الذهبي الفم، لم يكن الأمر فقط أن خطيئة آدم وحواء قد شوّهت الانسجام الأصلي للكون. بل أيضاً حالة استمرار الخطيئة - داخل كل شخص وبين الناس - تنعكس في العالم الخارجي. الإنسان عالم مصغر، كون من المنمنمات، والكون

المحيط به يعكس حالة روحه. كان عدم الاستقرار البيئي، بالنسبة للذهبي الفم، تربوياً، حيث يعلم من خلال تنافره أن البشر لا ينبغي أن يظهروا مثل هذا التنافر داخل أنفسهم وفيما بينهم. إن الأرض هي في نفس الوقت موقع نعمة وموقع خطر. كمرَّب رأى أن الأرض هي "أم ومرضة لنا" ولكنها أيضاً "وطن وقبر". [١٣]

تماماً كما ينعكس التنافر داخل البشر وفيما بينهم على تشنجات الأرض، كذلك تنذر التوبة والمصالحة باستعادة الانسجام وتفعيلهما بشكل سري. هذه هي الفكرة الكامنة وراء ثقة يوحنا الذهبي الفم العميقة بقوة التوبة لإبعاد غضب الله ووقف الزلازل. في هذا السياق، إن التوبة، التي تعني حرفياً "تغيير الفكر" (metanoia) نحو الله مرة أخرى، لا تعني مجرد التعبير عن الأسف، بل هي فعل مصالحة كونية. في عظته بعد الزلزال، استخدم القديس يوحنا المزامير كسيناريو ليظهر لمستمعيه أن الزلازل لم تكن مجرد عقاب بل أدوات يستخدمها الله لإعادة شعبه نحوه. يصوّر صوت الزلزال على أنه صوت الله: "أنا أسكت، والزلزال يبعث صوتاً أكثر جهورية من البوق قائلاً: 'الرَّبُّ رَحِيمٌ وَرَوْوْفٌ، طَوِيلُ الرُّوحِ وَكَثِيرُ الرِّحْمَةِ' (مزمور ١٠٣:٨) [١٤] وإذ يتكلم بضمير المتكلم كما لو كان بصوت الله في الزلزال، يتابع الذهبي الفم: "كنت حاضراً، ليس لأخضعكم، بل لأقويكم." [١٥]

كل من اختبر كارثة طبيعية يعرف الشعور بالتنافر الكوني. في يوم يمكن للأرض أن تتناغم مثل قطعة موسيقية معقدة ودقيقة، بينما في اليوم التالي تصبح متنافرة وخادشة للسمع، مشيرة إلى شيء من الفوضى العميقة. بعد زلزال سنة ٤٠٠، قدّم القديس يوحنا الذهبي الفم حجة مفادها أن مسؤولية استعادة الانسجام الكوني تقع على عاتق الكلام البشري: ترتيل المزامير وترانيم التوبة والمصالحة مع الأخ. على عكس اليوم، إذ تبدو الكوارث الطبيعية علامات على الغياب الإلهي، بالنسبة ليوحنا الذهبي الفم هي كانت علامات على الوجود الإلهي: مخيفة، وهائجة، لكنها في النهاية رحيمة. حتى في حالات الكوارث الطبيعية، يمد الله يده من خلال الحجاب الذي شققته الخطيئة، ويسعى إلى عودة البشرية إليه نفسه وإعادة ترسيخ التناغم الدائم في النظام المخلوق.

[1] Basil of Caesarea, *On the Hexaemeron* 2.2.

[2] See Gregory of Nazianzus, *Oration 28 (Second Theological Oration)*; John Chrysostom, *On the Incomprehensible Nature of God* 10.32. Further, see Veronica Della Dora, *Landscape, Nature, and the Sacred in Byzantium* (Cambridge: Cambridge University Press, 2016), 62.

[3] John Chrysostom, *Homily after the Earthquake (=Terr. mot.)* (PG 50:714). English translation, by Bryson Sewell here.

[4] Terr. mot. (PG 50:715), trans. Sewell.

[5] Terr. mot. (PG 50:714).

[6] Terr. mot. (PG 50:716), trans. Sewell. Emphasis added.

[7] Terr. mot. (PG 50:716), trans. Sewell.

[8] Terr. mot. (PG 50:714), trans. Sewell. Modified.

[9] See Blake Leyerle, "John Chrysostom and the Strategic Use of Fear," in *Social Control in Late Antiquity: The Violence of Small Worlds*, ed. Kate Cooper and Jamie Wood (Cambridge: Cambridge University Press, 2020), 173-187.

[10] See Wendy Mayer, "Poverty and Generosity towards the Poor in the Time of John Chrysostom," in *Wealth and Poverty in Early Church and Society*, ed. Susan R. Holman (Grand Rapids, MI: Baker Academic, 2008), 140-158.

[11] John Chrysostom, *Homilies on Acts* 7, 2 (PG 60.66). trans. NPNF, 47, modified.

[12] See Morwenna Ludlow, "Power and Dominion: Patristic Interpretations of Genesis 1," in *Ecological Hermeneutics: Biblical, Historical and Theological Perspectives* David Horrell, ed. Cherryl Hunt, Christopher Southgate and Francesca Stavropoulou (London: T&T Clark, 2010), 140-153.

[13] John Chrysostom, *Homilies on Genesis* 9.4; English translation in John Chrysostom, *Homilies on Genesis* 1-17, trans. Robert C. Hill (Washington, D.C.: Catholic University of America Press, 1999), 119.

[14] Terr. Mot. (PG 50:714), trans. Sewell.

[15] Terr. mot. (PG 50:714), trans. Sewell.

Source: Deacon Mark Roosien. Singing Against Disharmony: St John Chrysostom on Natural Disasters. Pappas Patristic Institute at Holy Cross Greek Orthodox School of Theology. Oct 24, 2022.  
<https://www.pappaspatristicinstitute.com/post/singing-against-disharmony-st-john-chrysostom-on-natural-disasters>

الأب مارك روزيين حاصل على درجة الدكتوراه في اللاهوت من جامعة نوتردام ومحاضر في الدراسات الليتورجية في معهد يال للموسيقى واللاهوت. موضوع أطروحته هو "ذكر الزلازل في الليتورجيا في القسطنطينية القديمة: تقاطع الطقوس والبيئة والإمبراطورية".

